من المخطوطات الموسيقية

بقلم : د. محمود قطاط

ان الكشف التاريخي لموسيقى المغرب العربي الكبير (*) لم يحظ بعد بالاهتمام الكافي . واذا ما استثنينا بعض المحاولات التي لا تخلو من أهمية . فهو غالبا ما يقدم في الاطار العام لتاريخ الموسيقى العربية وكانه مجرد مستهلك للانتاج الموسيقي المشرقي والاندلسي .

غير ان الحقيقة في هذا المجال ليست بهذه السهولة . فالمغرب العربي الكبير قد ساهم مساهمة فعالة في اثراء الحضارة العربية الاسلامية وقد عرفت مختلف مراكزه الثقافية حركة موسيقية عارمة كان لها دور أساسي في انشاء المدرسة الاندلسية واثرائها فيما بعد .

ومما يؤسف له .. قلة الوثائق المكتوبة التي وصلتنا في هذا المجال وذلك ليس لانعدامها بل لان معظمها قد اتلف واندثر اثر حوادث واوضاع مختلفة . لذلك فان جل المدونات الموسيقية المغربية التي بين ايدينا وصلتنا عن طريق النقل الشفاهي في صورة (سفائن) أو (كناشات) تتضمن غالبا دواوين شعرية جمعت فيها نصوص صنائع النوبات أو غيرها من التراث الغنائي المتداول ومن هذه المجموعة الصغيرة لم يكن حظ الدراسات النظرية والتقنية الصرفة ذا بال يذكر ... وهي على قلتها لا تزال في شكل مخطوطات مودعة في رفوف المكتبات العامة والخاصة يصعب بل يستحيل غالبا الوصول اليها والتعرف على مضمونها .

(*) تقديم لبعض المخطوطات حول التراث الموسيقي للمغرب العربي الكبير (وبصورة خاصة مخطوط التيفاشي : «متعة الاسماع في علم السماع »).

وأمام هذا الفراغ يتحتم على الباحث الاستعانة بمعلومات مشتتة يجتهدفى جمعها من هنا وهناك من بعض المصادر التاريخية والادبية وغيرها .. مع وجوب التنسيق بين اجزائها ومقارنتها بالاحداث السياسية والاجتماعية والدينية والعقائدية التى طرأت على المجتمع المغربى كما يستوجب ربط هذا التراث المغربى بالتراث العربى الاسلامى فى مختلف أطواره .

ونظرا للطابع الشفاهى الذى يغلب على هذا التراث فانه لمن الضرورى ان نتوخى أسلوب مقارنة الحاضر بالماضى . أى أن نحاول اتمام بعض النقائص فى مراحل موسيقانا وشرح النواحى الغامضة فيها اعتمادا على الواقع الحالى لهذا التراث الامر الذى يستوجب دراسات جادة ومتعمقة لكل العناصر والمميزات المكونة له . ذلك مع تقييم كل الاعمال التى انجزت حتى الآن فى هذا المجال كما وكيفا . ووضع بيبليوغرافيا عامة لكل المراجع المعروفة المخطوطة منها والمطبوعة لا الموسيقية فحسب بل وكذلك الادبية والتاريخية وغيرها مما تعرض من قريب أو بعيد لهذا التراث الموسيقى الزاخر . والجدير بالذكر اننا دخلنا والحمد لله فى مرحلة جديدة يمكن نعتها بالايجابية وذلك بما تعتمد عليه من منهجية علمية وموضوعية ومصادر هامة وقع اكتشافها فى السنين الاخيرة ونتعرض هنا الى البعض منها :

I) ـ أبو الصلت أمية بن عبد العزيز الدانى (460 ـ 529هـ/ 1067 ـ 1134م):

له « **رسالة فى الموسيقى** » . لا نعرف عنها الا ترجمة رديئة الى العبرية موجودة بمكتبة باريس الوطنية (I) ويستفاد من هذه الترجمة ان الرسالة عبارة عن تلخيص للجزء الاول والثانى بمقدمتيهما لكتاب « **الموسيقى الكبير** » للفارابى المتوفى سنة 339 هـ / 950 م . ومن المفيد ان نشير هنا الى ان المؤلف يورد مصطلح قانون (الفقرة الاولى من الباب الرابع المتعلق بدراسة الآلات الموسيقية) للدلالة على آلة ذات أوتار مطلقة من نوع الصنج . وهو مصطلح ـ اذا ما استثنينا كتاب « **ألف ليلة وليلة** » (من الليلة 49 والليلة I49) لم يستعمل فى مصادر المشرق العربى الا فى القرن الرابع عشر تقريبا ضمن كتاب « **كنز التحف** » القرن السابع الهجرى / الثالث عشر الميلادى . والذى وصف الآلة وصفا ضافيا . بينما نجد عند الفارابى (معزفة أو صنج) ،

(I) المكتبة الوطنية بباريس الرصيد العبرى عدد I037 ورقة (I ب ـ 20 ب) . فيما يتعلق بأبى الصلت انظر : **ديوان الحكيم** .. جمع وتحقيق وتقديم محمد المرزوقى ، تونس I974 .

وعند ابن سينا المتوفى سنة 428 هـ / 1037م ، وابن زيلة المتوفى سنة 440هـ / 1408 م كلمة (الشهر ود والعنقا) وكانت آلة القانون مألوفة فى المغرب الاسلامى ، ويصنفها الشقندى المتوفى سنة 629 هـ / 1232 م بين الآلات الاندلسية المصنوعة فى اشبيلية .

ب) ـ محمود بن محمد سيالة الصفاقسى القادرى (كان حيا سنة 1265 هـ / 1869 م) :

له كتاب بعنوان « **قانون الاصفياء فى علم نغمات الاذكياء** » (2) .

وهذا المخطوط يعتبر وثيقة هامة بالنسبة للموسيقى المغربية عموما والتونسية على وجه الخصوص وهو يحتوى على مقدمة وتسعة أبواب وباب عاشر فى شكل ملخص عام . ويتضمن معلومات ثمينة عن الموسيقى وأصولها وطرق تعليمها وعلاقتها بالشعر والطب والفلك وعن مدى تأثيرها وآلاتها وعن موقف الاسلام تجاه الموسيقى والموسيقيين وعن أوصاف المغني النموذجى وعن الطرائق اللحنية والايقاعية والتلحين .. الخ وزيادة على هذه الفصول التى استوحاها المؤلف من مختلف المراجع السابقة .. فان المخطوط يتضمن معلومات وافية عن العود المغربى من حيث صنعه وطرق تعديله وجدول دساتينه .. وكذلك عن مميزات الرصيد الموسيقى لدى بعض الطرق وخاصة القادرية التى كان ينتمى اليها المؤلف وكذلك الرصيد الشعبى كما انه يقدم لنا دليلا هاما يتعلق بالمصطلحات الخاصة بالموسيقى وبالآلات حسب استعمالها من قبل العلماء والصوفيين والعامة وهو يرجع كل مصطلح الى أصله العربى أو الفارسى أو التركى أو الاغريقى . والمخطوط يحتوى على ثلاثة رسوم بيانية للعود المغربى مع موضع النغمات (الباب 5 ، ص 25 . والباب 6 ، ص 30 و 32) وكذلك رسم لدائرة الضرب (الباب 9 ، ص 50) ورسمين لشجرة الطبوع تشبه الى حد كبير ما نجده فى بعض المراجع المغربية الاخرى وهو

---

(2) توجد نسخة بمكتبة العراقى ببغداد عدد 2276 (1) 60 ص حجم 21 × 15 سم واخرى ـ يبدو انها مسودة ـ بالمكتبة الوطنية بتونس عدد 19241 ، 61 ص وفى نفس الحجم وهى رغم ما تحتوى عليه من تشطيبات تكمل الاولى التى ينقص منها الجزء الاخير من الباب التاسع والباب العاشر بأكمله . واذا ما أضفنا هذه البقية للنسخة الاولى يصبح هذا المخطوط يحتوى على تسعة وستين صفحة (69) .

تشابه يكاد يكون حرفيا احيانا مثل المخطوط الذى تناوله فارمر فى كتابه « **معلم عود مغربى** » والذى وضع له عنوان « **معرفة النغمات الثمانى** » وكذلك كتاب ابراهيم بن محمد التادلى المتوفى سنة 1311 هـ / 1894 م : « **أغانى السيقا فى علم الموسيقى** » والبوعصامى (القرن الثانى عشر هجرى / الثامن عشر الميلادى) فى الترجمة التى وضعها له محمد بن الطيب العلمى فى « **الأنيس المطرب** » .

ومن بين ما يتضمنه هذا المخطوط :

- ثلاثة رسوم بيانية المشار اليها للعود مع الاوتار الاربعة وموضع الاصابع مشيرا اليها بأرقام عربية .
- شرح للاصوات الثمانية فى السلم المستعمل وقد رمز اليها بالأحرف الثمانية الاولى من الأبجدية العربية : (أ ـ ب ـ ج ـ د ـ هـ ـ و ـ ز ـ ح) .
- طريقة تعديل العود وكيفية مرافقة الغناء بالاعتماد على مختلف تفعيلات الشعر وأخيرا الطبوع الاربعة والعشرون خمسة أصلية و 19 فرعية وقد صنفت وفق شجرة الطبوع .

وهذه أوتار العود المغربى : * ـ أ : البم قديما أصبح الذيل .

* { ـ ب : المثلث قديما أصبح الماية .
ـ ج : الاصبع الاول .
ـ د : الاصبع الثالث . }

* ـ هـ : المثنى قديما أصبح الرمل .

* { ـ و : الزير قديما أصبح الحسين .
ـ ز : الاصبع الاول .
ـ ح : الاصبع الثالث . }

ويؤكد سيالة انه يوجد بعد طنينى بين الذيل والماية .

وبعد بالاربع بين الماية والحسين .

وبعد طنينى بين الرمل والحسين .

وما جاء بالنسبة للعود يؤكد استعمال السلم الطبيعي الدياتوني في الموسيقى المغربيــة (3) .

وقد وضع المؤلف كتابه في مقدمة وعشرة فصول هي :

(3) لمحمود سيالة مؤلفات كثيرة (22 كتابا تقريبا في ميادين عديدة كالطـب والتصوف والادب والعـروض والمـوسيقى والفلـك ...) نذكـر منهـا هنـا اثنيـن :

ج) ــ متعة الاسماع فى علم السماع لأحمد التيفاشى القفصى :

⋆ القيمــة الوثــائقية والفــائدة :

مخطوط « **متعة الاسماع فى علم السماع** » يقابل الجزء الواحد والاربعين من موسوعة ضخمة فى مختلف العلوم والتاريخ والادب ، عنوانهــا : « **فصــل الخطاب فى مدارك الحواس الخمس لأولي الالباب** » ويعالج كل جزء منها علمــا خاصا أو فنا بذاته يعلن عنه ثم يقدم له بعنوان ومقدمة . وهذا المخطوط من بين الاجزاء القليلة التى وصلت الينا ، وهو خاص بالفن الموسيقى ويشتمل على 47 بابا جاءت فى 187 صفحة ، كلها غنية بالمعلومات الهامة عن الموسيقى والغناء والآلات الموسيقية والرقص والشعر وغير ذلك .

⋆ من مميزات هذا المخطــوط :

- **انه** : الاثر الموسيقى الوحيد الذى انتهى الينا من العصر **الحفصى** .
- يقدم لنا صورة ضافية عما كانــت عليه صناعــة **الغناء فى المجتمــع** العربى منذ ظهور الاسلام حتى عهد المؤلف مع التركيز بصورة خاصة على المغرب والاندلس وهو بذلك ينفرد عن غيره من المراجع .
- يتضمن وصفا وافيا لآلة العود والرباب والارغن ويعطى معلومات هامة وفريدة من نوعها عن فنون الرقص والارتجال وقــوانين الالحــان والايقاعات وعن خاصيات النوبة المشرقية والمغربية والاندلسية وعن العود العربى وعن طــرق الاداء كما يكشــف لنا عــن اهميــة بعض الموسيقيين غير الواردين فى المصادر الاخرى مثــل ابن حاسب وابــن

ــ « **رسالة فيما يلزم المنشد فى معـرفة للقواعـد المـوسيقية** » : فى 9 صفحات حذف من أولها وآخرها . ويطابق فحواها تقريبا ما نجده فى آخر الجزء الثالث من مخطوط آخر يتعلق بالطريقة القادرية بعنوان : « **تلقين المقالات الادبية فى معرفة الطريقة القادرية** » فى 286 صفحة .

انظر المكتبة الوطنية بتونس رقم 242 19 و 223 19 . فيما يتعلق بمحمود سيالة ، انظر محمد محفوظ فى مجلة « **الفكــر** » عــدد 3 ، ديسمبر 1962 ، ص 55 ــ 59 ؛ محمود قطاط : **الموسيقى الكلاسيكية بالمغرب العربى الكبير** (بالفرنسية) ، باريس 1980 ، ص 183 ــ 185 ونظرية الايقــاع الموسيقى عــند العــرب ، **الحيــاة الثقافيــة** ، عــدد 22 و 23 سبتمبــر ــ اكتوبــر 1982 ، ص 90 ــ 107 .

حمارة وغيرهم من فنانى المغرب والاندلس . يعتمد على مراجع هامة كمؤلفات الكندي والفارابى واخوان الصفا . وأخرى أقل شيوعا مثل « **حاوى الفنون وسلوة المحزون** » لابن طحان المصرى (القرن الخامس الهجرى / القرن الحادى عشر ميلادى) وغيره .

والمعروف من مخطوط التيفاشى نسخة وحيدة توجد بالمكتبة الخاصة لفضيلة الشيخ محمد الطاهر بن عاشور بالمرسى . وهى مسودة بها اضطراب شديد فى الكتابة بل العديد من الصفحات مكتوبة فى شكل رموز بخط ردىء غير واضح مع اختلاط الاسطر واثر المحو والتغيير والحاق حواش وغير ذلك مما يجعل كتابة هذه النسخة المسودة وتقويمها عملا مضنيا وعسيرا .

⋆ كيفيـة التحقيـق :

لانجاز هذا العمل يجب اعتماد المنهجية الخاصة بتحقيق المخطوطات بمختلف مراحلها ونوجزها فى ما يلى :

ــ توثيق نسبة الكتاب للمؤلف مع ضبط اسم هذا الاخير وكذلك ضبط عنوان الكتاب والتأكد من عدم وجود نسخ اخرى والرجوع الى مختلف المراجع والفهارس التى تعرضت بطريقة أو بأخرى الى هذا المخطوط أو لمؤلفه .

ــ كتابة النسخة مع العمل على تقويم النص وتعديل واصلاح ما طرأ عليه من سهو وحذف وتحريف أو خطأ مع مراجعة التصحيف ومقابلتها بالمراجع التى اعتمدها المؤلف ونذكر من بينها :

- رسائل الكندى فى الموسيقى .
- **كتاب الموسيقى الكبير وكتاب المدخل الى صناعة الموسيقى** ، للفارابى .
- **رسالة** اخوان الصفا فى الموسيقى .
- **كتاب الأغانى** ، لأبى الفرج الاصبهانى .
- **كتاب الادوار والرسالة الشرفية** ، لصفى الدين البغدادى
- **حاوى الفنون وسلوة المحزون** ، لابن الطحان المصرى ...

ــ الحرص على اضافة كل التعليقات والاضافات الضرورية وتراجم الاعلام وشرح المصطلحات العلمية والفنية وما يتبع ذلك من تهميشات وفهارس وكشوف .

– وضع مقدمة تتضمن تعريفا ضافيا بالكتاب وبمؤلفه مع ابراز مختلف النواحي المنهجية والعلمية والفنية .

– اثبات المصادر والمراجع المعتمدة .

⋆ **المؤلف** : التيفاشي القفصي (أحمد بن يوسف) .

هو أحمد بن يوسف بن أحمد بن أبي بكر بن حمدون بن حجاج القيسي ، شرف الدين ، وتنسب أوائله الى بلدة (تيفاش) الكائنة الآن بشمالي عمالة قسنطينة من القطر الجزائري .

ولد بقفصة بالبلاد التونسية سنة 580 هـ / 1184 م حيث استقر أجداده وآباؤه من زمن بعيد وزاول جانبا من تعلمه بها ثم انتقل الى مدينة تونس لتلقي العلم بجامع الزيتونة واشتغل بالادب والعلوم والرياضيات وبرع في ذلك كله .

ثم ارتحل الى الديار المصرية ودرس بها وتفنن على موفق الدين عبد اللطيف البغدادي الطبيب المشهور .

تحول الى دمشق وقرأ على تاج الدين الكندي .

ثم رجع الى تونس حيث ولاه أبو زكريا الاكبر أول ملوك بني حفص ، خطة القضاء ببلده قفصة .

ترك الوظيفة وتوجه ثانية الى المشرق وتجول في انحائه فدخل العراق وبلاد فارس .

ثم عاد الى مصر واستقر نهائيا بالقاهرة في حدود سنة 630 هـ الى ان توفي سنة 651 هـ / 1253 م .

اشتهر التيفاشي بسعة العلوم والرواية ووفرة الادب والاطلاع الكبير على الكتب قديما وحديثا . وكان يقرض الشعر بسرعة غريبة . له مصنفات عديدة لم يصلنا منها الا النزر القليل وهي غزيرة المادة متنوعة المواضيع .

وكما يقول المرحوم حسن حسني عبد الوهاب :

« يعتبر التيفاشي من جلة علماء القرن السابع الذين جمعوا اشتات الآداب العربية والمعلومات المنبثة في مصنفات من سبقهم ، ودونوها في مجامع ضخمة قامت مقام دائرات المعارف العصرية ، فكانت المرجع الكبير لمن جاء بعدهم من الباحثين الى يوم الناس هذا فهي بلا شك مفخرة دائمة للعلوم والتاريخ والادب والفن » .

المصادر المتعرضة للتيفاشي :

ـ ابن فرحون : **الديبـاج المذهب** ، ط مصر ، ص 74 .

ـ السخاوي : **الاعلان بالتوبيخ** ، ص 162 .

ـ النواجي : **حلبة الكميت** ، ص 20 .

ـ حاجي خليفة : **كشف الظنون** (في أماكن كثيرة) .

ـ **فهرس** مكتبة باريس ، ج 2 .

ـ **المجلة الآسيوية الفرنسية** سنة 1828 : ص 5 وما بعدها .

ـ بروكلمان ج 1 : ص 495 .

ـ **معجم** سركيس ، ص 651 .

ـ حسـن حسني عبـد الوهـاب : **ورقـات** ، ج 2 ، ص 225 و ص 230 و ص 448 ـ 460 .

وهذه الصفحات الاخيرة ترجمة للتيفاشي كانت قد نشـرت في مجلـة « **الفكـر** » ، عدد 9 ، جوان 1959 ، ص 816 (4) ـ 822 (10) .

ـ ابن تاويت ، **مجلـة الابحـاث** ، ج 21 ، عـدد 2 و 3 و 4 ، بيـروت (ديسمبر 1968) .

ـ محمود قطاط : نظرية الايقاع الموسيقى عند العـرب ، **الحياة الثقافية** ، عدد 22 و 23 سبتمبر ـ أكتوبر 1982 ، ص 90 ـ 107 .

— GARCIA GOMEZ (E) : Une extraordinairia pagina de TIFASI y una Hipotesis sobre el inventor del Zegel, in *Mélanges LEVIPROVENÇAL*, Paris 1962 pp. 517-524.
— Id. : *Todo Ben quzma,* Madrid 1972, T. III pp. 305 — 308.
— GUETTAT (Mahmoud) : *La Musique Classique du Maghreb,* Paris — Sindbad 1980 (P 138, 168, 181, 182, 214... etc.)
— Id. *La musique andalouse et ses prolongements contemporains au Magreb* (Thèse de Doctorat, PARIS-SORBONNE IV, 1977).
— Id. Note sur les caractéristiques de la musique arabo-andalouse, in *XXXIè Congrès Mondial de la F.I.J.M,* Séville 5 — 12 Juillet 1981.
— VILLANUEVA (Fr. Jayme) : *Viaje literario a las Iglesias de Espana,* 2 vol., Madrid, 1809 - 1852 (tome XI).

(يتبـع)

د. محمـود قطـاط